بسم الله الرحمن الرحيم

{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ} ١٣-١٢-١٤٣٤

إنَّ زادَ الصبر للداعية إلى الله تعالى من أهم المهمات، ومن أعظم الواجبات، ولئن كان الصبرُ واجباً على كل مسلم، فإنه على الدعاة إلى الله من باب أولى ؛ ولهذا أمر الله به إمامَ الدعاة وقدوتَهم رسولَ الله ﷺ فقال سبحانه: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِالله وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ}.

والله عز وجل قد أوضح للناس أنه لابد من الابتلاء، والاختبار، والامتحان لعباده، وخاصة الدعاة إلى الله تعالى؛ ليُظهر الصادقَ من الكاذب، والمؤمنَ من المنافق، والصابرَ من غيره، وهذه سنةُ الله في خلقه، قال سبحانه: {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}، وقال عز وجل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}.

وأخرج الترمذيُّ وابنُ ماجه وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ وصححه الألباني في "صحيح الجامع" عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ".

وقد ذم الله عز وجل من لم يصبر على الأذى من أجل الدعوة إلى الله فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله فَإِذَا أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله}، وقال سبحانه: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىَ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىَ نَصْرُ الله أَلا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ}، وقال تعالى: {مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىَ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}.

وتبرز أهميةُ الصبر في الدعوة إلى الله عز وجل في أمور، منها:

أولاً: إن الابتلاء للدعاة إلى الله لابد منه، فلو سَلِم أحد مِن الأذى لسَلِم رسول الله ﷺ.

ثانياً: رتَّب الله تعالى خيرات الدنيا والآخرة على الصبر ومن ذلك:

١ - معيَّة الله مع الصابرين {إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ}.

٢ - محبَّة الله للصابرين {وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}.

٣ - صلوات الله ورحمته علىٰ الصابرين { ... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.

٤ - ضمان النصر والمدد للصابرين {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

٥ - الحفظ من كيد الأعداء {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}.

٦ - استحقاق دخول الجنة {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا}.

وهذه الفضائل قليل من كثير، ولله دَرُّ القائل:

الصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته لكن عواقبه أحلىٰ من العسل

صور مِن الصبر في الدعوة:

الصورة الأولى: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } .

الصورة الثانية: وضع السَّلا { هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة } علىٰ ظهره ﷺ وهو يصلي:أخرج الشيخان عنْ عَمْرو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَهُ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ

الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ قَالَ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ قَالَ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ ثُمَّ سَمَّى اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ".

الصورة الثالثة: ما أخرجه البخاري: عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ

اللهَّ ﷺ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللهَّ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ وَلَوَىٰ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ وَقَالَ: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُّ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } .

الصورة الرابعة: ما أخرجه الشيخان عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهَا أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ : هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ

الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

وقلّ من جدّ في أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فضائل الصبر في القرآن الكريم :

فضائل الصبر كثير جداً، ومنها:

١- علَّق الله الفلاح به في قوله:{ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} .

٢- الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره: {أولئك يؤتَون أجرهم مرتين بما صبروا}. وقال: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} .

٣- تعليق الإمامة في الدين به مع اليقين قال الله تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون} .

٤- ظَفرُهم بمعية الله لهم : {إن الله مع الصابرين} .

٥- جمعَ الله تعالىٰ لهم ثلاثةَ أمور لم تُجمَع لغيرهم: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} .

٦- جعل الله تعالىٰ الصبرَ عوناً وعُدَّةً، وأمرَ بالاستعانة به : {واستعينوا بالصبر والصلاة} .

٧- علَّق الله عز وجل النصرَ بالصبر والتقوىٰ فقال: {بلىٰ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين} .

٨- جعل الله سبحانه الصبرَ والتقوىٰ جُنةً عظيمة مِن كيد العدو ومكرِه، فما استجنَّ العبدُ بأعظم منهما: {وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً} .

٩- الملائكة تُسلِّم في الجنة علىٰ المؤمنين الصابؤين، قال الله تعالىٰ: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم

عقبىٰ الدار} .

١٠- رَتَّب الله تعالىٰ المغفرةَ والأجرَ الكبيرَ علىٰ الصبر والعملِ الصالح فقال سبحانه: {إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير} .

عوائق في طريق الصبر :

هناك عوائق في طريق الصبر علىٰ المؤمن تجنبها:

١- الاستعجال :النفس موكولة بحب العاجل {خلق الإنسان من عجل}، فإذا أبطأ علىٰ الإنسان ما يريد ربما نفد صبرُه وضاق صدرُه واستعجل قطف الثمرة قبل أوانها فلا هو ظفر بثمرة طيبة ولا هو أتم المسير، ولهذا قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ:{فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم}. ٢- اليأس : أعظم عوائق الصبر وهو الذي حذر يعقوب عليه السلام أبناءه من الوقوع فيه مع تَكرار البحث

عن يوسف وأخيه: فقال: {يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}. لقد دعا القرآن إلى عدم اليأس فقال الله تعالى: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس}، وقال عز وجل: {ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم أعمالكم}، وقال موسى عليه السلام لقومه: {استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}، ولما شكا خبابُ بنُ الأرت رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ ما يلاقيه من أذى قريش قال له رسول الله ﷺ بعد أن ذكره مصاب الصالحين في الأمم قبله: "والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون".

أمثلةٌ للصابرين : وهاك مثالين:

أولاً: الصبر على طاعة الله :

في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال الله تعالى: { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ }.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره: { فَلَمَّا بَلَغَ } الغلام { مَعَهُ السَّعْيَ } أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سِنا يكون في الغالب أحبَّ ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقتُه، وأقبلت منفعتُه، فقال له إبراهيم عليه السلام: { إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } أي: قد

رأيت في النوم والرؤيا، أن اللهّ يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحيٌ { فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ } فإنَّ أمرَ اللهّ تعالىٰ لا بد من تنفيذه، { قَالَ } إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًّا بوالده: { يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } أي: امضِ لما أمرَك اللهُ{ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } أخبرَ أباه أنه مُوطِّنٌ نفسَه علىٰ الصبر، وقرَن ذلك بمشيئة اللهّ تعالىٰ، لأنه لا يكون شيءٌ بدون مشيئة اللهِ تعالىٰ.

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا } أي: إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ، جازمًا بقتلِ ابنِه وثمرةِ فؤادِه، امتثالاً لأمر ربه، وخوفًا مِن عقابه، والابنُ قد وطَّن نفسَه علىٰ الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } أي: تلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ علىٰ جبينه، ليُضجعَه فيذبحَه، وقد انكبَّ لوجهه لئلا ينظر وقتَ الذبح إلىٰ وجهه.

{ وَنَادَيْنَاهُ } في تلك الحال المزعجةِ، والأمرِ المدهشِ: { أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ } أي: قد فعلتَ ما أُمرْتَ به، فإنك وطَّنتَ نفسَك علىٰ

ذلك، وفعلتَ كلَّ سببٍ، ولم يبقَ إلا إمرارَ السكينِ على حلقِه { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } في عبادتنا، المقدِّمين رضانا على شهواتِ أنفسِهم.

{ إِنَّ هَذَا } الذي امتحنا به إبراهيمَ عليه السلام { لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } أي: الواضحَ، الذي تَبيَّن به صفاءُ إبراهيم، وكمالُ محبتِه لربه وخُلتُه. فإنَّ إسماعيل عليه السلام لما وهبه اللهُ لإبراهيم، أحبَّه حُبًّا شديدًا، وهو خليلُ الرحمن، والخلةُ أعلى أنواع المحبة، وهو مَنصِبٌ لا يقبل المشاركةَ ويقتضي أن تكون جميعَ أجزاء القلب متعلقةً بالمحبوب، فلما تعلقت شعبةٌ مِن شُعب قلبه بابنه إسماعيلَ، أراد تعالى أن يُصفِّيَ وُدَّه ويختبرَ خُلتَه، فأمره أن يذبح مَن زاحمَ حُبُّه حُبَّ ربِّه، فلما قدّم حب الله وآثرَه على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } أي: صار بدلُه ذِبحٌ مِن الغنم عظيمٌ، ذبحه

إبراهيم، فكان عظيمًا مِن جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسُنة إلىٰ يوم القيامة.

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقًا في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقتٍ بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظَّم مثنىٰ عليه.

ثانياً: الصبر عن معصية الله :

لقد ذكر الله تعالىٰ في كتابه قصةَ صبرِ يوسف عليه السلام علىٰ مراودة امرأة العزيز. قال الله عز وجل: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ

مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} .

قال العلامة السعدي رحمه الله: هذه المحنةُ العظيمةُ أعظم علىٰ يوسفَ مِن محنة إخوته، وصبرُه عليها أعظمَ أجرًا، لأنه صبرُ اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرةِ، لوقوع الفِعل، فقدَّم محبةَ الله عليها، وأما محنتُه بإخوته، فصبرُه صبرُ اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبدَ بغير اختياره وليس له ملجأٌ إلا الصبرَ عليها، طائعًا أو كارهًا، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مُكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أنْ { رَاوَدَتْهُ الَّتِي

هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ } أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكنُ واحد، يتيسَّر إيقاعُ الأمرِ المكروه مِن غيرِ إشعارِ أَحدٍ، ولا إحساسِ بشرٍ.

وزادت المصيبة، بأن { غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ } وصار المحلُّ خاليًا، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعتْه إلىٰ نفسها{ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } أي: افعل الأمرَ المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريبٌ، لا يحتشم مثلُه ما يحتشمُه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدِها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلىٰ ما هنالك، وهو شابٌّ عَزب، وقد توعدتْه، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القويِّ فيه، لأنه قد هَمَّ فيها همًّا تركَه لله، وقدَّم مرادَ الله علىٰ مراد النفس الأمارةِ بالسوء، ورأىٰ من برهان ربه – وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجِبِ لتركِ كل ما حرم

الله – ما أوجب له البعدَ والانكفافَ عن هذه المعصية الكبيرةِ، و { قَالَ مَعَاذَ اللهِ } أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعلَ القبيحَ، لأنه مما يُسخط الله ويُبعد منه، ولأنه خيانةٌ في حق سيدي الذي أكرمَ مثواي.

فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا مِن أعظم الظلم، والظالمُ لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوىٰ الله، ومراعاةَ حق سيده الذي أكرمه، وصيانةَ نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثالَ الأوامر، واجتنابَ الزواجر، والجامعُ لذلك كلِّه أنَّ الله صَرَفَ عنه السوءَ والفحشاءَ، لأنه مِن عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدىٰ عليهم من النعم، وصَرَفَ عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلىٰ الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت

إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلىٰ الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي: زوجها لدىٰ الباب، فرأىٰ أمرًا شق عليه، فبادرت إلىٰ الكذبِ، أنَّ المراودةَ قد كانت مِن يوسف، وقالت: { مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا } ولم تقل "من فعل بأهلك سوءا" تبرئةً لها وتبرئةً له أيضًا مِن الفِعل.

وإنما النزاعُ عند الإرادة والمراودة { إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي: أو يُعذَّب عذابًا أليمًا.

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: { هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } فحينئذ احتملتِ الحالُ صِدقَ كلِّ واحدٍ منهما ولم يُعلَم أيُّهما.

ولكن الله تعالىٰ جعل للحق والصدق علاماتٍ وأماراتٍ تدُل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئةً لنبيه وصفيِّه يوسفَ عليه السلام، فانبعث شاهدٌ مِن أهلِ بيتها، يشهد بقرينة وُجِدتْ معه، فهو الصادقُ، فقال: { إِنْ

كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } لأن ذلك يدل علىٰ أنه هو المقبلُ عليها، المراودُ لها المعالجُ، وأنها أرادت أنْ تدفعَه عنها، فشقَّتْ قميصَه مِن هذا الجانب.

{ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } لأن ذلك يدل علىٰ هروبِه منها، وأنها هي التي طلبتْه فشقتْ قميصَه مِن هذا الجانب.

{ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ } عرف بذلك صدقَ يوسفَ وبراءتَه، وأنها هي الكاذبة.اهـ

وهكذا ينجي الله عباده المخلصين